الحسناء

الجزء الثامن — المجلد الثاني

بيروت شهر شباط سنة ١٩١١

صورة جميلة

خطاب للانسة امية خوري القته في حفلة سيدة شمس البر بقصص سيرة

البصائر قرابي

ايها السادة والسيدات

ان الصور تؤثر في الناظر اليها فترسم على عقله ما يظهر على هيئتها من الصفات . قال روسكن « اني لما اجيل نظري بصورة جميلة تلوح لي بارقة من الصلاح والاستقامة فتشتد همتي وترتفع آمالي فاحس بسعادة »

على ان الطبيعة باسرها وما فيها من شموس وانهار وكواكب وجبال واودية وسهول وانهار وبحار ما هي الا صورة جميلة رسمها الخالق لتطبع على نفس المتأمل بها عظمة وجلالاً

وما تاريخ اعاظم الرجال الا تأمل عميق في صورة النفس البشرية الكبيرة قال بلوتارك المؤرخ الشهير « كنت اذا دونت التراجم فلاجل اطلاع غيري عليها ثم صرت اسر بها باذلاً جهدي في اقتفاء اثار من اترجم مطبقاً سيرتي على رسم سيرته منشياً بمثاله المتجلي لي امام مرآة الفكر » فدربنا تواريخ الافاضل واتخاذنا

ايامم مثالاً مما ينير عقولنا فنسلم من العثرات المعترضة سبيلنا

ومتاحف الامم الراقية هي صورة اجمالية تاريخية فان ما فيها من الآثار يرسم على عقول ابناء هذا الزمان ما امتاز به اسلافهم من القوى العقلية والادبية

واما نحن السوريين فليس لنا كأمة من متحف ندخل اليه لنرسم على عقولنا ما امتاز به اجدادنا انما لدينا هيكل التاريخ البشري فاذا دخلنا الساعة اليه بتصوراتنا نقف امام صورة ظهرت بها النفس في اكمل مظاهر الجمال . هذه الصورة التي نتأمل بها الان لم تكن صاحبتها من الملكات او الاميرات لكن ملوك الارض طأطأوا رؤوسهم اجلالاً لها . لم تمتز بجمال وجهها ورشاقة قامتها لكنها امرت افاضل قومها بجمال نفسها الفتان . لم تطالب بحقوق النساء ولم تتهم الرجل بهضم حق المرأة لكنها مشت امام اخواتها وعلمتهن ان خدمة الانسان وتخفيف ويلاته وعمل الواجب ينيل المرأة كل حق واعتبار . لم تحفل بالبهرجات والمظاهر الخارجية ولم تكن في مقدمة سيدات بلدتها باتباع الموضه على اخر زي لكنها اتخذت البساطة لبسها والاخلاص حلاها وزينتها . لم تصل الاغنياء حرباً عواناً ولم تندد بهم لكن كان لها القوة على ان تديرهم بيدها النحيفة للاخذ بناصرها وتأييد مشاريعها الخيرية بما لهم من المال والنفوذ . لم تطلب الشهرة لاعمالها لكن الانسانية قدرت عملها قدره فنصبت لها تمثالاً في هيكل الفضل .

قامت صاحبة هذه الصورة السيدة اليصابات فراي في اواخر القرن الثامن عشر في بلاد الانكليز في عصر كان اهلوه يحظرون على المرأة الخروج عن دائرة بيتها وكانت هي نفسها من اللواتي يحسبن ان الواجبات المنزلية مقدسة لا يجوز اهمالها ولكنها مع اتساع دائرة بيتها عودت نفسها ان تفتكر في ساعات فراغها في من حولها من البشر فرأت هنالك طبقة من الناس في شديد الحاجة الى المساعدة

فوجهت قواها للعمل بما يوحي اليها ضميرها واشعلت جذوة الصلاح الضعيفة في احطّ البشر وانعسهم حالاً · اولئك هم اهل السجون

على حين ان البلاد الانكليزية كانت يومئذ مرسحاً لاهل التحزبات السياسية ولم تكن احوالها الاجتماعية بارقى من بلادنا اليوم فكثرت فيها التعديات وازدحمت بالمتشردين والبطالين وقطاع الطرق فضاقت بهم السجون رجالاً ونساء ومما زاد الحكومة ارتباكاً واشغلها عن اصلاح داخليتها عدوها الالد نبوليون الذي ارعب اوربا جمعاء فاخذت تحشد الجنود لكسر شوكته

ففي الحوال كهذه قامت البصابات فرأت ان لا تطالب الحكومة بمطالب رسمية بل تسعى جهدها باصلاح حالة السجون

كانت حالة المسجونات تحرّك الشفقة في اقسى القلوب فان رطوبة السجن وسوء المعاملة صيرّ منظرهن اقرب الى الوحشية منه الى الانسانية وكما ان الرجل لا يستطيع مباراة المرأة في الصلاح كذلك لا يستطيع مباراتها في الشر ايضاً· فهي اذا ارتفعت نفسها الى العلى اقتربت من الملائكة في صفاتها واذا هوت الى مهاوي الشر وصلت الى الدرك الاسفل

فاخذت البصابات تحرّك عواطف الناس وتثير فيهم الحنان والشفقة بوصفها حالة السجون ففتحت لها الامة الجيوب والقلوب وامدوها بالاراء والمشاركة في العمل

وظلت هذه الفاضلة تتردد على السجون نحواً من عشرين سنة تدرّب سكانها على العمل وتلقي عليهم من التعاليم ما يشوقهم لاصلاح نفوسهم

على ان الحكومة لما رأت تأثيراً لعملها في اخر هذه السنة عينها مجلس الاعيان عضواً في لجنة اقيمت للنظر في اصلاح السجون · وكان يرأس اللجنة

دوق اف ريتشموند فنحتها الحكومة كثيراً من مطاليبها اهمها وجوب تهذيب المسجون وابدال السجون الرطبة المظلمة ببنايات صحية

ثم زارت سجون فرنسا واضرمت الغيرة في قلوب سيدات باريز فالفت جمعية لهذه الغاية وساعدهن بذلك ملك وملكة فرنسا وكثير من الاسرة المالكة والشرفاء .

وقد لاقت في برلين من العائلة المالكة كل اكرام فاستقبلتها امرأة ولي العهد في قصرها وقامت بينهم خطيبة نقص عليهم اخبار النهضة الاصلاحية في بلادها وقد ابقت هنالك اثراً عظيماً في النفوس حتى ان ملك بروسيا لما زار بلاد الانكليز بعد ذلك طلب ان يزورها في بيتها قائلاً ان امرأة تتحمل المشاق وتقطع الوفاً من الاميال في تخفيف ويلات الانسان تستحق كل اعتبار واحترام

وكتبت لحفيدتها يوم كانت ضيفة في القصر الملكي في دنبارك « ان خدمتي تعساء بلادي تخولني الحق ان امثل بين يدي ملوك وملكات اوربا ويعجبني ما اشاهده من البساطة والدعة فان اميرات اوربا لابسط لبساً والين عريكة من اميرات بلادنا الانكليزيات »

وناقت نفسها في اخر ايامها لاصلاح البيمارستانات وكان اكبر مشجع ومنشط لها في ذلك امبراطورة الروس التي كانت تكاتبها . وهاك ما كتبت تلك الامبراطورة الفاضلة يوم ابتاعت قصراً قديماً محاطاً بالجنائن الغناء وجعلته مستشفياً للمجانين: « ان هذا اليوم لاسعد يوم في حياتي اذ قدرت ان اسر بعض منكودي رعيتي »

ويعوزني الوقت ايها السادة اذا تبسطت فيما فعلت من اصلاح حال المنفيين لمستعمرات بلادها وتوجيه فكر السيدات للمسؤولية التي عليهن نحو الخدم وعن الجمعيات التي انشئت لذلك فان حياتها كانت كأشعة الشمس التي تنير كل الجهات

لانها خدمت بلادها ولم تهمل واجباتها البيتية وقد امتاز اولادها بحسن الاداب والمقدرة على الاعمال وساعدت حكومتها على حل اعظم مشكل قام امامها فادركوا ان اصلاح الاخلاق لا يقوم بالقصاصات الصارمة بل بتسهيل وسائل الاعمال وتأييد الامن وتعميم التهذيب الامور التي هي اساس ارتقاء الامة

ايها السادة ! ما اضعف المحبة التي لا تظهر في كل اعمالنا وما اوهن النور الذي لا يضيء الا على جانب واحد فالمحبة الحقيقية هي اشبه باشعة الشمس التي تنير كل جهات الارض

هذه فاضلة من الافاضل الذين قادوا الامة في سبيل التقدم والفلاح وعلمت الناس اجمع ان الحكومة لا تقوى على الاصلاح بدون الشعب وان الشعب لا يقوى على مساعدة الحكومة ما لم يتحد معها . ما لم يعضد اميره عالمه وغنيه فقيره وقويه ضعيفه

نحن في حاجة الى اصلاح المدارس والمستشفيات والبيمارستانات والملاجئ ونحن العساكر والسجون وليس بوسعنا ان نكون كلنا قواداً كالبصابات انما بوسع كل فرد منا ان يعضد بما له من القوة المشاريع الخيرية والجمعيات التي غايتها خدمة الانسانية . بوسعنا ان نضحي اغراضنا الذاتية ومطامعنا الشخصية على مذبح خدمة الوطن والنفع العام .

قيل ان الالهة منحت الشاعر قوة على انزال السماء الى الارض في ساعة يخلو بالهه ويتعمق بتأملاته . وهذه القوة ليست للشاعر فقط بل لكل فرد منا اذا تأمل قليلاً وفهم معنى الحياء الحقيقي فلكل منا قوة على انزال الفضائل السماوية الى عالمنا هذا

من لنا بافراد ملأت المحبة صدورهم وتدرعوا بالاقدام والثبات يمشون امام

الامة فتتبعهم

من لنا بامة اذا قام فيها مصلح تعضده باموالها وتعززه بقوتها وتنشطه بارائها

من لنا بجماعة اذا اتفقوا على مشروع خيري ثبتوا معاً رغماً عن كل ما يعترض سبيلهم من المصاعب

من لنا بسيدات ينظرن من وراء ستائر شبابيك بيوتهن حالة البلاد ومطالبها . سيدات تزينت بيوتها بصور الافاضل ومكاتبها بالكتب المفيدة وعقولها بسير الابطال والحكماء فتطبعها على عقول الناشئة الجديدة التي ستكون حاكمة الشعب ومدبرته

من لنا باخت ترسم على عقل اخيها صورة البيت الجميلة وتجعله يرى بحسنها ولطفها وحكمتها وترتيبها ان زاوية من زوايا البيت لأفضل من اجمل القهاوي والمراسح في بلدته

من لنا بشعراء مجيدين ينظمون تواريخ الافاضل واعمال المحبة بقصائد تتغنى بها الامهات حول اسرة اولادهن ويتقشها المعلمون على صفحات عقول تلاميذهم

ايها الافاضل ان الانسان ولا سيما الحدث خاضع لناموس المؤثرات المحيطة به جميعنا مديونون ليس لوالدينا ومعلمينا فقط بل للعصور السالفة وما مر بها من مؤثرات المحيط . فهل ارباب بيوتنا اليوم ومعلمو مدارسنا وحكام بلادنا وكتابها وتجارها وعمالها ومن تدور عليهم حركة الاعمال يطبعون على العقول صور الصدق والاستقامة وعزة النفس وابائها وكرم الاخلاق والمحبة الوطنية صفات لا يقوم عظيم حتى ولا ترتفع امة ما بدونها . قال فيلسوف الحياة اللورد افبري « ليس المقام الاجتماعي ولا البيوت الفخيمة ولا الاموال الوفيرة ولا الملابس المجوهرة مما يجعل الرجل رجلاً انما العبرة بالاخلاق والشيم »